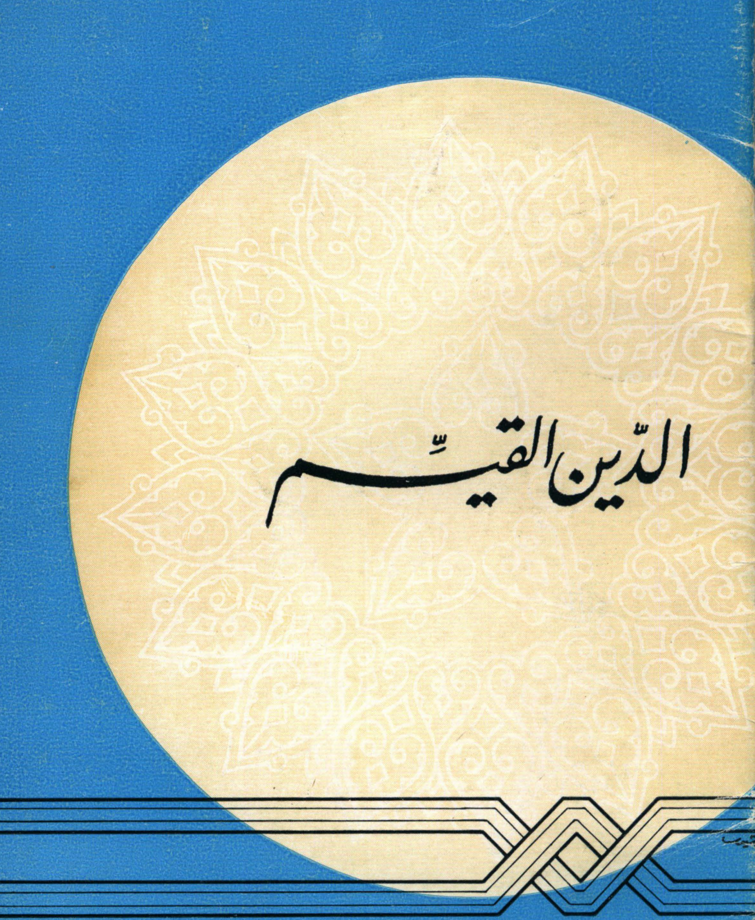
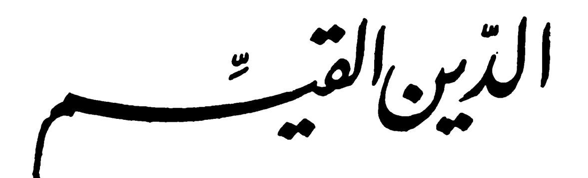
أبو الأعلى المودودي



الدين القيم

مؤسسة الرسالة

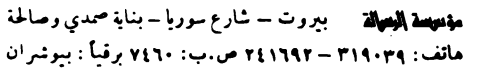
ابو الأعلى المودودي



الدين القيم

مؤسسة الرسالة




مؤسسة الرسالة بيروت – شارع سوريا – بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ – ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ان الدعوى التي يتحدّى بها القرآن المجتمع البشري ويدعو بها الناس كافة الى منهاجه المعروف هي التي بيّنها بقوله ، عز من قائل : إنّ الدينَ عِندَ الله الاسلامُ (آل عمران : ١٩)

وقد اخترت هذه الآية الحكيمة موضوعاً لكلامي وعنواناً للبحث الذي أنا بصدده الآن . ولولا ضيق نطاق الوقت لوفّيت الموضوع حقه من التحقيق ، الا أنني أريد الآن أن ألمّ بالموضوع إلماماً متوخياً الايجاز ، محيطاً بجميع أطرافه ونواحيه حسب ما يسمح به الوقت والمقام .

فليكن كلامي أولا في إيضاح معنى هذه الآية ، ولو بطريق الايماء ، حتى ينكشف الغطاء عن الدعوى التي ادّعاها القرآن في هذه الآية .

ثم نتناول بالبحث ثانياً السؤال الناشيء بمجرد سماع هذه الدعوى : « هل هي جديرة بالايمان بها والاذعان لها » ؟ .

وفي الختام أريد بيان المقتضيات والواجبات التي يستدعيها قبول هذه الدعوى ويقتضيها الايمان بها والاذعان لها .

فالذي يُفهم عامة من معنى هذه الآية :ان الدين الصحيح عند الله الاسلام من غير شك . اما الاسلام فلا يعرفون منه غير أنه ديانة ظهرت في بلاد العرب منذ أربعة عشر قرنا وقام بتأسيسها محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . وانما قلت « قام بتأسيسها » تعمداً لأن كثيراً من المسلمين بل أهل العلم منهم - دع عنك ذكر غير المسلمين الذين تورطوا في هذا الخطأ عن قصد وغير قصد - يسمون محمداً صلى الله عليه وسلم تسمية الباني لدين الله وينسبون تأسيس الدين المبين الى شخصه الكريم ، كأني بهم يزعمون أن الاسلام لم يكن بدؤه الا برسالته صلى الله عليه وسلم وأنه هو الذي قام بتأسيسه وتشييد بنيانه . ومن ثم ترى ان باحثاً من غير المسلمين حينما تصل به الدراسة الى هذه الآية الكريمة لا يسبر غورها وإنما يمر بها مروراً ، ظناً منه ان القرآن قد ادعى بحقانية الديانة التي جاء بها ، شأن الديانات الاخرى حيث تدعي كل واحدة منها بكونها على حق وان ما دونها هو الباطل. واما المسلم فلا يشعر بحاجة ولا يحس بدافع في نفسه الى تدبرها وإعمال الروية فيها ، حينما تتسنى له تلاوة تلك الآية الكريمة ، لأنه لم يزل مؤمناً بالدين الذي نطقت الآية بكونه دين الحق . وإن أحس من نفسه ميلا الى تدبر هذه الآية وإنعام النظر في مغزاها فلا يعدو ان يقبل على المقارنة بين الاسلام والديانات الأخرى كالنصرانية والوثنية والبرهمية والبوذية ، ويظهر للناس ان الاسلام هو الدين الحق من بينها جميعاً . ولكن الحقيقة ان هذه الآية الحكيمة من آي القرآن ، يجب

على الطالب المستبصر ان يتوقف عندها ملياً ويتحرى وجوه المعاني الكامنة فيها أكثر مما تدبرها الباحثون للآن وأمعنوا فيها .

وجدير بنا ان نحدد أولا وقبل كل شيء معنى كلمتي « الدين » و « الاسلام » الواردتين في هذه الآية ليتسنى لنا استكناه سر دعوى القرآن واستجلاء وجه الحقيقة منها .

الدين

فلنبدأ بكلمة « الدين » منها ، فنرى انها تستعمل في عدة معان ، حسب ما نصت عليه معاجم اللغة . فمن معانيها :

١ ـ الملك والسلطان والحكم والغلبة .

٢ ـ الطاعة والذل والعبودية .

٣ ـ الجزاء والمكافأة والحساب .

٤ ـ الطريقة والمنهج .

والظاهر ان لفظة الدين ههنا في الآية قد وردت في هذا المعنى الرابع الاخير كما لا يخفى على المتأمل. فالمراد بالدين ذلك المنهاج للحياة او الطراز المخصوص للتفكير والعمل الذي يُتّبع ويحتذى على مثاله ؛ لكنه مما ينبغي ان لا يغيب عن ذهنك أيها القارىء ، أن القرآن ما جاء بهذه الكلمة نكرة ، وانما جاء بها محلاة بلام التعريف « الدين ». القرآن لا يقول ان الاسلام منهاج من مناهج الحياة والتفكير فحسب بل الذي يقول به ويدعيه أن الاسلام هو المنهاج الوحيد الحقيقي

الصحيح للحياة البشرية والطراز المخصوص للتفكير والعمل في هذه الحياة الدنيا . وكذلك لا يغيبن عن بالك ان القرآن لا يستعمل هذه الكلمة « الدين » في معنى ضيق محدود ، بل يطلقها على معنى شامل جامع أوسع بكثير مما يتصوره الناس عامة . فالمراد بمنهاج الحياة ، منهاج الحياة بأجمعها ، لا منهاج فرع من فروعها أو ناحية من نواحيها . وكذلك ليس المقصود انه منهاج لحياة كل فرد من الكتلة البشرية على حدة فحسب ، بل هو منهاج كافل للمجتمع البشري بأسره أيضاً . وكذلك ليس معناه انه منهاج لحياة قطر خاص او أمة بعينها او عصر معين ، بل المراد انه منهاج عملي عام جامع محيط بجميع نواحي الحياة البشرية ، الفردية منها والجماعية ، ولا يختص بقطر دون قطر او زمن دون زمن او أمة دون أمة . فليس من معنى دعوى القرآن ان مجموعة صحيحة من العبادات والايمان بالمغيبات والحياة بعد الموت هي التي تسمى « بالاسلام » ؛ وكذلك ليس معناه ان صورة التفكير والعمل الوحيدة الصادقة « للمتدينين »(١) من البشر - قلنا « المتدينين » حسب الاستعمال الشائع اليوم في مصطلح أهل الغرب الذين يحسبون ان الدين انما هو عبارة عن مجموعة من الشعائر المعينة والطقوس المعهودة ولا علاقة له بالحياة الاجتماعية أصلا - انما هي التي تتجلى في مرآة الاسلام ؛ وأيضا لا يريد القرآن بدعواه ، ان منهاج الحياة الصحيح

---

(١) وردت في الاصل كلمة مذهبي وهو تعبير صادق صحيح للمفهوم الضيق المحدود الذي حصروا الدين في دائرته واقاموا حولها سوراً منيعاً من الخرافات والتقاليد الكاذبة الواهية .

للعرب وحدهم او لاجيال متعاقبة بعينها اولاناس عاشوا وازدهروا الى زمن محدود او عصر مخصوص كالانقلاب الصناعي Industrial Revolution مثلا هو الذي يعبر عنه « بالاسلام » اللهم لا هذا ولا ذاك، بل الذي يصرح به القرآن في هذه الآية ويعلنه، هو ان المنهاج الوحيد الصحيح المرضي عند الله في هذه الحياة الدنيا، الكافل للحياة البشرية جمعاء، المحيط بها في كل عصر وفي كل زمن، هو ذلك المنهاج الفطري الذي يعبر عنه « بالاسلام » وما كدت أقضي العجب ،حينما بلغني أن بعض المتجددين المتنورين من أبناء قطر معروف بين آسيا وأوربا ، قد فسر القرآن تفسيراً غريباً، جاء فيه ان الاسلام(١) انما هو علاقة فردية او ذاتية بين العبد وربه ، ولا صلة له بنظم العمران والمملكة البتة . ولعمري ان هذا تأويل مدهش غريب وأغرب ما فيه الادعاء بكونه مستنبطاً من القرآن نفسه . ولكن الذي أراه وأجزم به بعد ما عكفت على دراسة الكتاب العزيز

---

(١) قاله احد مندوبي تركيا الجديدة الذين زاروا الهند منذ بضعة اعوام خلال الحرب الماضية ، قال في تصريح صحفي عام ما معناه : « اننا في تركيا قد فرقنا بين الدين ونظم الحكم والاجتماع تفريقا تاما ، وانه لا علاقة للدين بنظم العمران والمملكة البتة . » وقال ايضا . « اننا فسرنا القرآن وفق هذه الفكرة ونشرناها في بلادنا » الى آخر ما جاء في تصريحه من القول السخيف والكلام المريض . وكان من حسن المصادفة ان الاستاذ المودودي ، صاحب هذه المحاضرة، القاها في نفس تلك الايام امام جمع حافل بالمثقفين الجدد وخريجي الجامعات العصرية . ومن هنا كانت هذه الاشارة الى كلام المندوب الصحفي التركي .

عكوفاً وسبرت غور معانيه ومبانيه زمناً غير قليل ووقفت على مثالثه ومثانيه وقفة المتأمل المستبصر، ان القرآن لم يستعمل كلمة « الدين » في معنى ضيق محدود رغم مـــا يريده المفسرون المتجددون وتريد أهواؤهم، وانما يريد القرآن « بالدين » منهاج التفكير والعمل الشامل للحياة البشرية جمعاء، لا فرق في ذلك بين زمن وزمن وقطر دون قطر . اقول به ، واني على بينة من الامر ولا أخاف في ذلك رد راد ولا جحود متعنت

الاسلام

هذا ، ولنأخذ الآن لفظة « الاسلام » ولنتأمل في معنـــاها ومغزاها . فالاسلام ، لغة هو الخضوع والاستسلام والطاعة والانقياد لأمر الآمر ونهيه بلا اعتراض . لكن الكلمة ما وردت في التنزيل « نكرة » وانما جاءت معرفة باللام ، كأني بها أخرجت مُخرَجَ مُصطلحٍ خـــاص . فالاسلام بهذا المصطلح القرآني هو الخضوعُ لله والانقيادُ لطاعته وانسلاخُ العبد من حريته الذاتية بازائه تعالى شأنه وإسلام وجهه لله . وليس معنى هذا الخضوع والاستسلام والطاعة ان يخضع المرء لقوانين الطبيعة (Laws of Natur) كما توهم بعض الناس ؛ وكذلك ليس من معناه ان يطيع العبد تصور Conception مرضاة الله ومشيئته الذي استخرجه بنفسه بمساعدة من مخيلتـــه او مشاهداته وتجاربه ، كما زعمت فئة أخرى ، بل الحق ان معناه ان يقبل الانسان المنهاج الفكري والعملي الذي أنزله الله لهداية البشر

وأرسل به رسلا من عنده ، يقبل ذلك المنهاج القويم ويتبعه ويخضع له منقاداً مطيعاً منسلخاً من حريته الفكرية والعملية ـ أو بلفظة أصح « الفوضى الفكرية والعملية » ـ وهذا المنهاج هو الذي يعبر عنه القرآن « بالاسلام » . وليس ذلك في نفس الامر بدين مستحدث ظهر في بلاد العرب منذ أربعة عشر قرناً وقام بتأسيسه النبي العربي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، بل الأمر أن الله قد أعلم البشر بذلك يوم ظهروا على هذه الكرة الأرضية لأول مرة وعلمهم أن « الاسلام » ، هو المنهاج الصحيح الوحيد للنوع البشري في هذه الحياة الدنيا . والذين بعثوا من الانبياء والرسل على فترات في مختلف العصور والأزمنة وفي مختلف البقاع والامكنة وأرسلوا لهداية البشر مبشرين ومنذرين ، ما كانت دعوتهم جميعاً الا الى هذا الاسلام الذي بعث به أخيراً داعياً لكافة البشر ، خاتمهم وأفضلهم سيدنا ومولانا النبي العربي الامي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . ولا يقدح في ذلك ما فعله أتباع سيدنا موسى عليه السلام من بعده من تحريف الكلم عن مواضعه ومزج الحق بالباطل واختلاق نظام مستحدث مختلط بشتى الاهواء والآراء وتسميته باليهودية ؛ وكذلك لا يضره ما ابتدعته النصارى من بعد نبيهم وما استحدثوه من نظام ديني جديد ونسبوه الى السيد المسيح ، صلوات الله عليه وسلامه ، كذبا وزوراً . وأيضاً لا يضره في شيء ما فعلته أمم الهند والصين وبلاد فارس وغيرها من أنحاء المعمورة من مخالفتهم لما جاءت به الرسل والهداة في تلك

الأقطار واجترائهم على ابتداع الديانات واستحداث نظم للحياة وخلط الحق بالباطل حسب ما اقتضته شهواتهم وأهواؤهم . نعم ! ليس هذا ولا ذاك بضائر ما قلت ، لأن الدين الذي جاء به موسى وعيسى وبعث به غيرهما من الانبياء والرسل لدعوة البشر اليه من الذين قصهم الله علينا او لم يقصصهم لم يكن الا «الاسلام» دين الله الخالص ، لا غير . فتتضح بهذا البيان دعوى القرآن جلية ناصعة ، وهي :

« ان منهاج الحياة الصحيح الوحيد المرضي عند الله للجنس البشري ان يسلم وجهه لله ويخلص دينه له تعـــالى شأنه ويتبـع ذلك الطريق الفكري والعملي الذي هدى الله البشر اليه بواسطة أنبيائه ورسله » .

— ٢ —

هذه هي دعوى القرآن . فلننظر هل هي جديرة بالقبول والايمان بها ؟

اما الحجج والبينات التي استدل بها القرآن على دعواه هذه فلابد لنا من تدبرها والتأمل فيها . ولكن ما لنا لا نركض جواد الفكر اولا ونتحرى وجوه الصواب من هذه الدعوى ونتفكر في انه هل لنا من مندوحة عن قبول هذه الدعوى ، او ملجأ من اليقين والطمأنينة نلجأ اليه اذا رفضناها ؟

ومن البين الذي لا خفاء فيه ان الانسان لا بد له في العالم من منهاج للحياة يختاره من بين المناهج ويتبعه فانه ليس كالانهار يتعين

مجراها بوهاد الارض ونجادها من نفسه ؛ ولا شأنه كشأن الاشجار تنمو وتكبر حسب السنن الطبيعي والنواميس الطبيعية ؛ وكذلك ليس الانسان بحيوان أعجم من الأنعام والدواب التي تسير بسائق جبلتها وتكتفي بالوازع النفسي الكامن فيها لهدايتها وإرشادها الى منابع الرزق ومرافق الحياة ؛ فانه مع كونه خاضعاً لقوانين الطبيعة في قسم كبير من حياته ، لا يجد طريقاً معبداً ومنهاجاً معيناً في نواح أخرى من حياته المتشعبة ، يمكنه أن يسير ويظل دائباً عليه كالانعام من غير ارادة منه ولا قصد . وانما يضطر البشر الى أن يختار بنفسه منهاجاً من بين المناهج الممكنة . فانه يحتاج الى منهاج للتفكير يحل به معضلات الكون والحياة البشرية التي تعرضها الفطرة على قريحتـــه المفكرة ولكن لا تزودها بحل لها ميسور يطمئن اليه الخاطر ؛ يحتاج الى منهاج للعلم يرتب به المعلومات المبعثرة التي توصلها الفطرة الى ذهنه بواسطة حواسه ولكن لا تأتي بها مرتبة منتظمة في حال من الاحوال ! وكذلك الانسان في حاجة ماسة الى منهاج لشؤونه الشخصية يقضي به شيئاً كثيراً من مطالبه الذاتية التي تقتضيها الفطرة وتستدعيها ، ولكن لا تجهزه بشيء من المعدات والوسائل ، ولا تساعده بطريق لقضائها واضح محدود . وزد على ذلك انه يحتاج في حياته العائلية ، وحفظ الاواصر بين ذوي القربى ، والشؤون الاقتصادية ، وادارة المملكة ، والعلاقات الدولية ، وفي كل نواحي الحياة الكثيرة الأخرى ، الى منهاج يتبعه ويسير عليه ، لا بصفته فرداً من أفراد الجنس البشري

فحسب ، بل يسلكه بصفته الجماعية والقومية والنوعية أيضاً ، حتى يبلغ مرتقى الغايات السامية التي يتطلبها الانسان ويقتضيها بوازع من فطرته التي فطر عليها ، لكن الفطرة ما أوضحت له معالمها ولا حددت له طريقاً للوصول اليها .

ومما ينبغي ان لا يغيب عن بالك ان شعب الحياة هـــذه التي لا مندوحة فيها للانسان عن اختيار منهاج للعمل ، كل واحدة منها مستقلة بنفسها ، مستغنياً بعضها عن بعض ، حتى يمكن الانسان ان يختار لكل واحدة منها سبلاً متفرقة يختلف بعضها عن بعض في وجهتها وراحلتها وطريق المسير وخطته ويتشعب بعضها عن بعض في مطالب السفر ومقتضياته ويعارض بعضها بعضاً في الغاية التي يقصدها السالك والمطمح الذي يشخص اليه السائر ببصره . والذي أوتي نصيبـــاً من الفهم وتوقد الخاطر وأعطى الحياة البشرية والمسائل المنوطة بها حظاً من عنايته وتفكيره ، اطمأنت نفسه وعلم علم اليقين بأن الحيـــاة الانسانية بأسرها مجموع يرتبط كل جزء منه بالآخر ارتباطاً وثيقاً وتلتصق كل ناحية منه بالأخرى لصوقاً تاماً ، لا ينفصل ولا ينفصم ، يؤثر بعضه في بعض ويتأثر بعضه من بعض ، يجري في عروقها جميعاً دم واحد ، وتسري في أنفاسها روح واحدة ، فيتألف من هذا وذاك ويتكون من تفاعلها في ما بينها الشيء الذى نسميه « بالحياة البشرية » . فالحق ان الانسان لا يحتاج الى مقاصد وغايات مختلفة لفروع حياته المتشعبة العديدة ، بل الذي يفتقر اليه في نفس الأمر غاية واحدة بين جنبيها سائر الغايات ، الجليلة منها والصغيرة ، متوافقة متلائمة

بحيث يظفر بها جميعاً بجهاده في سبيل الحصول على تلك الغايـــة ؛ وكذلك لا يحتاج الى سبل متفرقة وانما يحتاج الى سبيل واحدة يسير في سلوكه اياها ، بحياته ، بجميع فروعها وشعبها متوافقة متناسبة الى الغاية العليا والهدف الاسمى ؛ وايضاً لا يحتاج الى نظم للتفكير والعلم والادب والفن Art والتعليم والديانة والاخـــلاق والاجتماع والاقتصاد والسياسة والدستور وغيرها ، لا يحتاج الى نظم على حدة لكل واحد منها ، بل الذي يحتاح اليه ويتطلبه هو النظام الجامـــع الشامل الذي يبسط جناح رحمته عليها جميعاً وكل منها يجد في كنفه مستقراً ومستودعاً ، ملائما لجبلته ومزاجه ، والذى يشتمل على أصول ومبادىء متناسبة متجانسة موافقة لطبيعة كل واحد منها ، والذي يضمن للانسان وكل كتلة من الجنس البشري بل الانسانيّة قاطبة من حيث مجموعها ان تنال بغيتها المنشودة وتبلغ أقصى غاياتها اذا اتبعت ذلك النظام وجعلته دستوراً لها وقانوناً .

ولقد خلا عصر الجاهلية المظلم الذي كان الناس يحسبون فيه ان الحياة البشرية يمكن تجزئتها الى شعب وفروع على حدة مستقلة بنفسها . واذا كان لا يزال فينا بقية ممن يرون هذا الرأي الفاسد ويتفوهون بمثل هذه الأحاديث الواهية فلا يخـــلو أمرهم من شيئين : إما أن يكونوا أغراراً ما انفكوا يتنفسون في جو الآراء والاوهام العتيقة التي أكل عليها الدهر وشرب ، فلا كلام لنا فيهم ، وانما أمرهم الى الله ، عسى ان يوقظهم من رقدتهم ويهديهم الى طريق الحق ؛ واما ان

يكونوا دهاة يريدون ان يلبسوا الحق بالباطل وهم يعرفون الحقيقة، وانما يظهرون ما لا تؤمن به قلوبهم ، لانهم في حاجة الى ان يوهموا الذين يعارضون مبادىء دينهم الباطل الذي يريدون تنفيذه في مجتمع من المجتمعات البشرية ويجعلوهم يوقنون بأن هذا « الدين » الجديد لا يمس في قليل ولا كثير شعب حياتهم التي يعز عليهم ان يجور عليها قانون او يتدخل فيها احد بشيء وستبقى عزيزة الجانب محافظة على خصائصها ومقوماتها . والحال ان هذه المحافظة وعدم التدخل الذي يتشدقون به ممتنع عقلاً ، متعذر وفق السنن الفطرية وغير ممكن في دائرة العمل والتحقق الفعلي . والذين يتفوهون بمثل هـــذا الكلام المريض ، هم أنفسهم يعرفون في الغالب ان ذلك محال ، لا يمكن تحققه .. ومن ذا الذي يخفى عليه اليوم ان الدين الغالب يسيطر على جميع شعب الحياة ونواحيها ويفرغها في قالبه إفراغاً، ويصبغها بصبغة روحه وطبيعته . ومثله في ذلك كمثل معدن الملح ، كل ما يصل اليه ويدخل في كنفه يتحول ملحاً .

هذا وقد عرفت بطلان القول بتجزئة الحياة البشرية الى شعب على حدة مستقلة بنفسها ، فاعلم أن القول بتجزئتها الى دوائر اقليميـــة وأخرى نسلية أمعن منه في الضلال وأعرق منه في فساد الرأي . ولا ننكر أن الانسان يعمر بلدانا مختلفة مبثوثة في أنحاء المعمورة المتشعبة، قد فرقت بينها الانهار والجبال والبحار والغابات وحدتها من جوانبها ثغور مصطنعة اختلقها الانسان . وكذلك مما لا مراء فيه ان الجنس

البشري يشتمل على شعوب وامم وسلالات وعشائر متعدده تطبعت بطوابع مختلفة من خصائص الانسانية ومقوماتها ونشأت فيهم أخلاق وخلال من الانسانية مختلفة لاسباب تاريخية ونفسية psychogical وغيرها من العوامل؛ولكن الذي يقول محتجاً بهذا الاختلاف ومستدلاً به أنه لا بد لكل سلالة ولكل أمة ولكل كتلة جغرافية من «دين» اي نظام للحياة على حدة ، فلا ريب انه يتخرص ويقول بما لا يرضاه المنطق الصحيح والعقل السليم . والظاهر من أمرهم انهم انخدعوا بما وقعت عينهم عليه من مظاهر الاختلاف وأمارات التباين والتباعد ولم ينتبهوا لما في مظاهر الاختلاف هذه من أساس الوحدة الانسانية وما في أعراض هذه الكثرة من جوهر الوحدة النقي . وان كانت هذه الاختلافات المزعومة بمنزلة من الخطورة والاهمية بحيث تقتضي ان يكون لكل أمة او لكل قطر دين على حدة ، فلعمر الحق انك اذا دققت النظر في ما تشاهده من مظاهر التباين والتباعد بين الذكر والانثى وبين الانسي والانسي وبين ولدين من أم واحدة وسبرت غورها وأمعنت في تحليلها تحليلا علميـــا ، اذا فعلت هذا لوجدت — وعسى ان لا أكون مغاليا في هذا القول — هذه الاختلافات والفروق أثقل وزناً و أزيد عدداً من تلك المظاهر المتباينة والاغراض المتباعدة فما الذي يمنعك من القول بأنه لا بـــد لكل فرد من أفراد الجنس البشري من نظام للحياة على حدة : ولكنك تقول ان في غضون تلك الاختلافات والفوارق الفردية والصنفية Sexual والعائلية عنصراً

من الوحدة ثابتاً يحتمل تصور الامة والوطن او السلالة ويعد من الممكن ان ينهض على قواعد هذا التصور بناء نظام الحياة ، لامة او لاغلبية ساحقة من سكان قطر بعينه . فما الذي اعمى بصرك من ان تستجلي من بين تلك الفوارق القومية والنسلية والوطنية عنصر وحدة اساسية عظيمة يقوم على بنائها تصور الانسانية ويعد بموجبه ممكنا ان يتكون دين او نظام للحياة واحد للجنس البشري قاطبة ؟ او لا ترى ان القوانين الطبيعية التي يعيش الانسان حسب مقتضاهـــا في هذه الحياة الدنيا واحدة متجانسة بالرغم من جميـع الفوارق الجغرافية والنسلية والقومية؟ وكذلك الهيئة الجسدية التي خلق عليها الانسان والخصائص التي تفرق بين الانسان والحيوانات الاخرى وتجعله نوعاً مستقلاً بذاته، وكذلك الدواعي الفطرية والنوازع الجبلية التي أودعها الانسان والقوى التي نعبر عن مجموعها بالنفس البشرية ، فكل هذه متجانسة متساوية بين جميـع أصناف البشر ، رجـــالهم ونسائهم وأسودهم وأحمرهم وشرقيهم وغربيهم . وقس عليهـــا سائر العوامل الطبيعية والنفسية والتاريخية والمدنية والاقتصادية التي تؤثر في الحياة البشرية وتعمل فيها عملها ، فانها أيضاً بأسرها متساوية متماثلة بين جميع طبقات البشر في جوهرها وأساسها .

فان كان كل ذلك حقاً وصدقاً — ومن ذا الذي يسعه ان يجحده او يجادل فيه — فالمبادىء التي توضع لسعادة الانسان بصفته النوعية ينبغي ان تكون عالمية شاملة لكافة البشر . وليس هناك ما يقتضي

انحصارها في دوائر القومية او الوطنية او النسل . يجب عليها ان تظهر خصائصها وتنظم شؤون حياتها الفرعية بطرق شتى تحت هذه المبادىء والقواعد العالمية . لكن الدين القيم او منهاج الحياة الذي يتطلبه الانسان بصفته النوعية الانسانية لابد أن يكون واحداً ، مهما تقلبت الاحوال والظروف . فانه مما يأباه الذوق ولا يقبله العقل ان الشيء الذي يكون حقاً مستبيناً لأمة من الأمم ، يتحول باطلاً لأمة أخرى . والذي يكون باطلاً وفساداً لشعب من الشعوب يعود صلاحاً وحقاً لشعب آخر .

ومن سخافات هذا العصر المتمدن العريقة في الضلال القولُ بتجزئة الحياة البشرية الى العصور والازمنة ، وقد ألبسوها ثوباً مزخرفاً من العلم والتحقيق وعرضوها على الانظار والمسامع كانها حقائق ثابتة في موضعها ، والحال ان بينها وبين الحقيقة مابين الارض والسماء . ومرادهم بذلك ان نظام الحياة الذي يكون حقاً وينبوعَ سعادةٍ وصلاحٍ للبشر في عصر قد ينقلب باطلاً ومبعث خيبة وفشل في عصر آخر . وحُجتهم في ذلك ان مسائل الحياة وشؤونها تتبدّل بتبـدّلُ العصور والازمان ، وكونُ نظم الحياة حقاً او باطلاً انما يتوقف برُمّته على هاتيك المسائل والشؤون ووضعيتها الخاصة . ويقولون كل هذا ويتشدقون به عن الحياة البشرية نفسها التي يدّعون عنها انها تسير حسب نواميس النشوء والارتقاء ، والتي يبحثون في تاريخها عسى ان يظفروا بالقوانين المؤثرة العاملة فيها ، والتي يدققون

في تجاربها الماضية ليستخرجوا منها درساً للحال وعظة للمستقبل ، نعم ! يقولون كل ذلك عن الحياة البشرية بعينها التي يثبتون ويقررون لها شيئاً يسمونه « الفطرة الانسانية » . ولسائل ان يسأل : هل عندكم من مقياس تقيسون به الحركة التاريخية للنوع البشري المتسلسلة من بدء هذه الكرة الارضية ، وتقيمون به حدوداً مستبينة فاصلة بين زمن وزمن وعصر وعصر وعهد وعهد ؟ وهل في وسع أحد أن يضع أنملته على خط من خطوط تلك الحدود مثلًا ويدّعي ان ما وراء هذا الخط من مسائل الحياة قد تحولت تحولاً تاماً بعد ما عبرته وجازته وان الأحوال والظروف التي ُوجدت في الجانب الآخر من هذا الخط ، لم يبق لها عين ولا أثر في هذا الجانب ؟ كلا ! ولو كان التاريخ البشري في نفس الامر منقسماً الى مثل هذه الأجزاء الزمنية المنفصل بعضها عن بعض كما تزُعمون وتدّعون ، لكان معناه ان جزءاً من الزمان الذي قد خلا ، صار عبثاً وحديثاً منسياً للجزء الزمني الذي يأتي بعده وضاع بمضيّه كل ما أدّاه الانسان من الاعمال وما ادخره من الجهود في ذلك الجزء من الزمان ، والتجارب التي حصل عليها البشر في ذلك الزمان المدبر ، لم يبق فيها درس ولا عظة للزمن اللاحق ، لأن الظروف والاحوال التي اختبر فيها الانسان بعض الاصول والمناهج وجرّب السعي المتواصل وراء بعض قيم الحياة (Values of life) قد فنيت فناء وأصبحت كأن لم تكن شيئاً مذكوراً . واذا كان الامر كذلك ، حسب ما تزُعمُ ، فلماذا حديث النشوء والارتقاء هذا ؟ ولأي شيء هذا البحث والتدقيق في قوانين الحياة ؟ وعلامَ هذا

لاستنباط والاستخراج من تجارب التحقيق العتيقة ؟ لأن الكلام في لنشوء والارتقاء يستلزم بطبيعته ان هناك شيئاً يكون محلًا لكل هذه لتحوّلات ويتحرك ويسير ذلك الشيء متتابعاً متواصلًا محافظاً على نفسه في غضون تلك التطورات ، وحينما تبحث في قوانين الحياة وتسبر غورها فكأني بك تعترف بأن في هذه الظروف والاحوال المتبدلة وفي هذه المظاهر العابرة السائرة وفي هذه الصور المنقلبة المتحولة كل حين وأن حقيقة ً حيوية ً ثابتة ً ، لها فطرتها الذاتية وقوانينها المختصة بها ، وكذلك استخراجك الدروس والعظات من تجارب التاريخ الماضية يستوجب القول بأن السالك الذي مازال يجوب المنازل المترامية ويقطع المراحل الشاسعة من طرق التاريخ المتطاولة بأعناقها الى مامضى من القرون والاجيال ، له شخصية يمتاز بها وطبيعة يستقل بها ، حتى يصح القولُ فيه بأنه يعمل على منهاج مخصوص في ظروف مخصوصة ويقبل أشياء في وقت ويرفض تلك الاشياء بعينها في وقت آخر ويقتضي أشياء أخرى غيرها . وما هذه الحقيقة الحيوية وما هذا الشيء الثابت الذي يكون موضوعاً ومعمولاً للتطورات وما هذا السالك المستقل في مسالك التاريخ الواسعة ، الا الشيء الذي لعلكم تسمونه « بالانسانية » . ولكن ، مابالكم ، اذا أفضتم في حديث منازل الطريق والاحوال العارضة بها والمسائل التي تنشأ منها تشعّبت بكم الافكار وذهبت بكم كلّ مذهب ويبلغ بكم الامر ان تذهلوا عن السالك نفسه وتجعلوه نسياً منسياً ؟ أحقٌ مايقولون : ان تبدّل المنازل وأحوالها ومسائلها يستوجب تبدّل السالك وحقيقته ؟ والذي نشاهده

نحن أنه لا يزال على هيئته التي كان عليها يوم خلق الله البشر ، لم يتغير منها شيء ، وأن عناصره التركيبية اليوم بعينها التي كانت منذ آلاف من السنين ، وأن طبيعته والمقتضيات التي تستدعيها فطرته والاوصاف والخصائص التي يمتاز بها عن غيره وميوله ونزعاته كلها على ما كانت عليه من قبل في عصر من عصور التاريخ . وكذلك قواه واستعداده وضعفه وعدم كفاءته وقواعد فعله وانفعاله وتأثيره وتأثره والقوى الحاكمة عليه العاملة فيه ومحيطه الكوني ، هذه كلها جميعاً على حالها التي كانت عليها من قبل ، لم تتبدل شيئاً ولم يحدث فيها أدنى تغيير منذ بدء الكون الى هذا العصر الذي نعيش فيه . فلا يقدر احد ان يجترىء على القول بأن الانسانة نفسها او الامور التي لها ارتباط وثيق بها كانت تتبدل بتبدل الاحوال والمسائل الناشئة من ذلك في مجرى التاريخ الطويل .

فاذا كانت الحقيقة على ما ثبت في ما تقدم فما رأيك في قول من يدّعي أن الشيء الذي كان بالأمس ترياقاً للانسان قد تحول اليوم سماً ناقعاً ، والذي كان بالامس حقاً أصبح اليوم باطلاً ، والذي كانت له قيمته ومكانته بالأمس قد استحال اليوم لا يقام له وزن ، أو تراه في شيء من الحق والعدل ؟ والحقيقة أن النوع البشري ، أفراداً وجماعات ، قد أخطأ خلال مجرى التاريخ البشري الطويل في فهم الانسانية نفسها والامور الاساسية المتعلقة المرتبطة بها ، وأفرط في الاعتراف ببعض الحقائق وفرّط في بعض ، حيث لم يدرك سرّها ومغزاها . فكانت النتيجة أن نظم الحياة التي اختارها بين حين وآخر جاءت عادلة عن

الطريق القويم ، متنكبّة ً مجحِّة ً العدل والصواب فرفضتها الانسانية الكبرى بعد ما اختبرتها ووجدتها مائلة عن الجادة المستقيمة ليَحُلّ محلّها نظم أخرى مثلها .

فاستنبطوا من مشـــاهدة تجربيات تلك النظم المتبدلة أنه لا بد للانسانية في كل عصر من نظام للحياة على حدة ، يتولد من الاحوال والمسائل الكائنة في ذلك العصر نفسه ولا يبذل جهده الا في حلّها ، والحال انه ان كان يمكن استخراج نتيجة من تلك المجربات بطريق أصح وأقوم فهي أنّ في اختبار مثل تلك النظم العصرية المتبدلة بتبدل العصور والأزمنة – وان شئت قلت : حشرات الارض المتولدة المتجددة بتجدد مختلف فصول السنة – وامتحانهـا مرةً بعد مرةٍ وتجربة التالية بعد انقطاع الأمل من السابقة لضياعاً لجهود الانسانية الكبرى وأوقاتها الثمينة وقطعاً لسبيلها وصداً لها عن نشوئها وارتقائها وعن تقدمها الى كمالها المنشود بالقاءالعراقيل في طريقها . والذي تتطلبه الانسانية وتحتاج اليه أشدّ الاحتياج ، هو منهاج او نظام للحياة يُبنى على مبادىء وقواعد عالمية ثابتة دائمة ، على علم بحقيقتها ومعرفة تامة بجميع الحقائق المتصلة بها ، بحيث يتمكن به الانسان من اقتحام غمرات الحال والمستقبل والخوض في شؤونها المتحولة المتبدلة والخروج منها سالمـــاً ظاهراً ويقدر على حل جميع المشاكل المتولدة من تلك الشؤون والاحوال وفك معضلاتها ، وفوق ذلك ان تستطيع الانسانية

بمساعدة المنهاج المرضي أن تتقدم وتسمو نحو غايتها العليا آمنة مطمئنة جادّةً في سيرها غير متعثرة ولا متلعثمة .

هذه هي وضعيّة « الدين » او المنهاج او نظام الحياة الذي تتطلبه الانسانية وتحتاج اليه . فلننظر هل في وسع الانسان ومُكنته ان يضع ديناً كهذا لنفسه وينجح في مهمته اذا أراد ذلك مستقلاً برأيه . ولا أُراني في حاجة الى ان أسألكم الآن : هل نجح الانسان قبل هذا اليوم في وضع مثل ذلك « الدين » أم لا ؟ ، لأن ذلك لم يكن قط ولن يتحقق أبداً ، حتى الذين تراهم اليوم يعرضون أديانهم على الناس ويبدون ويعيدون في دعاويهم الفارغة ويتناحرون ويتقاتلون في ما بينهم لأجلها لا يستطيع ان يدّعي أحد منهم أن دينه الذي قدّمه إلى الناس وعرضه عليهم يفي بالمقتضيات والمطالب التي جعلت الانسان بصفته الانسانية محتاجاً الى « الدين » الكامل المطلوب . فمنهم من دينه منحصر في دائرة النسل والأمـة ، ومنهم من دينه إقليمي أو جغرافي او مختص بطبقة دون طبقة ، ومنهم من لم يتولد دينه الا من مقتضيات العصر الذي لم يمض عليه الا عشيةً أو ضحاها ، ونحن لم نقـدر بعدُ على الاحاطة بالمقتضيات والمطالب التاريخية للعصر الذي نحن فيه والذي نراه يَمُرُّ ويمضي أمام أعيننا ؟ اما العصور المستقبلة فلا يمكن القول عنها الآن بأن هذه « الأديان » التي ما تولدت الا من مقتضيات العصر الذي لم يمض الا بالأمس ، تكفي البشر وتُروي غليلهم في الأحوال والمسائل التي تحدث فيها . ولأجل ذلك تراني لا أسألك عما عسى ان يكون

الإنسان قد نجح من قبل في وضع دين كهذا ؟ والذي أنا سائلك الآن عنه : أنه هل يستطيع الإنسان ان ينجح في مثل هذه المهمة ، اذا سوّلت له نفسه ذلك ؟

وهذا سؤال في غاية من الخطورة ، لا يجدر بالباحث ان يَمُرَّ به مروراً من غير تفكير وإعمال رويّة ! ! وانما هذا من الاسئلة المهمة التي لها يدٌ في توجيه مجرى الحياة وتحديد غايتها العليا . فلنتدبر المسألة ولنَتَثَبّتْ منها لنكون على بينة من الشيء الذي يُراد وضعه وإيجادُه ونعلم استعداد الانسان الذي نبحث الآن في تأهُّله لوضع ذلك الشيء وكفاءته لذلك الأمر الخطير .

ومما ينبغي ان لا يغيب عن ذهن القارىء أن « الدين » الذي بيّنتُ آنفاً احتياج الانسان اليه وحققتُ افتقاره اليه ، لا أريد به نظاماً للحياة تفصيلياً ، يكون محيطاً بكل دقيق وجليل من فروعها وجزئياتها ، مهما اختلفت الازمنة وتقلبت الاوضاع ، حتى لا تسنح سانحة ولا تحدث كائنة في أي عصر اوقطر الا وتجدها مدوّنة مكتوبة في ذلك النظام التفصيلي ، ولا يبقى من مسؤولية الانسان بعد ذلك الا ان يتّبعه ويعمل حسب مقتضاه . كلا ، والله ، ليس المراد بذلك ، وانما المقصود من « الدين » المطلوب مبادىء عالية خالدة لا تتغير ولا تزول ، يمكن الانسان ان يهتدي بها ويستضيء بنورها في جميع ما يطرأ عليه من الحوادث والاحوال ، مبادىء تحدّد وجهة الانسان وتعيّنها في تفكيره وسعيه وكفاحه وتُضيء الصراط السوي لتقدمه

ويحفظه من التخبط في ميادين الوهم والضلال وإضاعة جهوده ومساعيه في تجارب فارغة لا طائل تحتها . وهذا يقتضي ان يعرف الانسان اولاً وقبل كل شيء حقيقة نفسه وحقيقة الكون الذي هو فيه ويعلمها علم اليقين ، فان الظن والتخمين لا يغنيان في هذا الباب شيئاً ويدرك منزلته في هذا الكون حق الادراك . وكذلك يحتاج ان يكون على معرفة تامة ، فان مجرد الحدس لا يسمن ولا يغني من جوع في هذا الشان بحقيقة هذه الحياة الدنيا : أهي حياة تامة بنفسها أو هي مقدمة لما بعدها ؟ أهي رحلة تبتدىء بمولده وتنتهي بمماته لا تزيدمنها ولاتنقص ، أم هي مرحلة أولى من مراحل الرحلة البعيدة الشاسعة فحسب ؟ ثم مع كل ذلك لابد من غاية للحياة معينة ، تكون في نفس الأمر لا بمجرد الهوى — غاية الحياة البشرية التي خلق الانسان لأجلها حقيقة والتي تتلاءم معها غاية كل فرد وكل مجموع من أفرادالبشر في كل عصر وزمن ، بل غاية الانسانية بأسرها مجموعة من غير تجاذب وتزاحم في ما بينها . وايضاً يحتاج الى اصول ومبادىء للاخلاق راسخة شاملة تلائم خصائص فطرتها جميعاً ويمكن انطباقها من الوجهتين النظرية والعملية على كل ما عسى ان يحدث من تبدل وتغير في الاوضاع والاحوال ، حتى يتمكن من تهذيب طبعه وتنشئة سيرته وخلقه من طابع تلك الاخلاق الراسخة ويتيسر لهالاستنارة بمشكاة هدايتها في مختلفالمنازل والاحوال التي يواجهها أثناء هذه الرحلة ويتسنى له الاقتباس منوميض تعاليمها في حل المشاكل وفك المعضلات التي تعرض له خلالهـــا ولا يتجاسر على تعبير تلك المبادىء الخلقية الراسخة والاستبدال بها مبادىء

أخرى جديدةً من تلقاء نفسه كلما تغيرت الاحوال وتجددت المشاكل، أي لا يصير كالذي لا مبدأ له ولا غاية وإنما تُجِلُّ همّه أن ينتهز كل فرصة لارضاء شهواته ويغتنم كل ساعة لاتباع أهوائه . وكذلك يحتاج الى قواعد للمدنية جامعة شاملة تُوضَع على علمٍ بالمجتمع البشري او معرفة تامة بحقيقته وغايته ومطالبه الفطرية ، قواعدُ تقوم على أُسسٍ من العدل والقسط من غير إفراط ولا تفريطٍ وتراعى فيها مصالحُ البشر كافة بحيث يمكن الانسانَ باتباعها وقَفْوِ آثارها ان يسعى وراء استكمال جميع نواحي حياته والنهوض بها وترقيتها ، مهما تغيرت الازمان والاحوال، وفوق ذلك يحتاج الى حدود متبيّنة جامعة تكون له كالمنارة في ظُلمات الحياة وطرقها الملتوية المتشعبة تحفظه من الضلال والفوضى في العمل وتضمن له السلامة في سيرته الشخصية وسلوكه الاجتماعي ومساعيه واعماله الفردية والاجتماعية وتُوجّهها وجهة الحق والمنهاج المستقيم ، وتحذّره في كل منعطف ومفترق طريق وتُنبّهه في كل مرحلة خطرة ومنزل محفوف بالاخطار وترشده الى الصراط السوي والطريق المستقيم حينما تتشعب الطـــرق وتعمى السبل على السابلة والسالكين . وعلى ذلك فانه مفتقر الى قوانين عملية خالدة تكون في حد ذاتها ووضعيتها جديرةً بأن يتبعها الناس ويتلقوها بالقبول في كل عصر وكل زمن ، وايضاً تستطيع ان تُبقي الحياة البشرية مرتبطةً ارتباطاً وثيقاً بفلك الحقيقة الاصلية وغايةِ الحياة الانسانية وتلك المبادىء الخلقية والقواعدِ المدنيةِ والحدودِ العمليةِ التي بُينت أصولُها وأوضحت معالمها في ذلك « الدين » .

هذا هو الشي الذي نحن الان بصدده . فهل ترى أن الانسان يملك من الوسائل والاسباب ما يقدر به على ان يضع له ديناً كهذا بنفسه ؟ والذي لا يختلف فيه اثنان أن الوسائل التي يملكها الانسان لاستنباط دينه او منهاج حياته تنحصر في أربع : الأولى « الهوى » او « الشهوة النفسانية » والثانية « العقل » والثالثة « التجربة والمشاهدة » ورابعة الأربع « السجل التاريخي للتجارب الماضية » . ولا أحسب أحداً يقدر أن يُرشدني الى وسيلة خامسة غير هذه . فتأمّل هذه الوسائل الأربع ودقق النظر فيها مهما استطعت من التأمل والتدقيق وانظر : هل في وُسعها أن تُساعد الانسان في وضع « الدين » المنشود وايجاده؟ والذي هداني إليه البحث والتحقيق بعد ما صرفت في تحقيق المسألة جزءاً غير يسير من عُمري وقتلتُها بحثاً أن هذه الوسائل ما كانت لِتُساعد في ايجاد « الدين » ووضعه أصلا . أما إذا جاء ذلك الدين من عند غير البشر هدايةً لهم وإرشاداً الى طرق الخير والسداد ، فان هذه الوسائل تستطيع أن تُساعد الانسان وتُعينه في فهمه ومعرفة قدره وإدراك حقيقته وتشكيل نظم الحياة حيناً بعد حين وفق مقتضاه .

ولنأخذ هذه الوسائل الأربع ولننظر في كل واحدة منها على حدة ، عسى ان نعرف الأسباب التي جعلتها غير قادرة على القيام بهذه المهمة .

فلنبدأ بالهوى أولاً . أوَ نراها تستطيع ان تكون هاديةً للبشر؟

فانها ، وان كانت الدافع القوي للعمل في الانسان ، لا تستحق ان تكون هادية للبشر بحال من الاحوال لما في طبيعتها من دواعي الضعف والخوَر . ولعمر الحق أنها أضلت العقل والعلم في كثير من الأحيان فكيف يُرجى منها أن تتولى الهداية بنفسها وتأخذ زمامها بيدها منفردةً . ومهما هذّبتَ من شموس طبيعتها و كبحتَ من جماح فطرتها وجعلتَها مستنيرة الفكر ، متنورة البصر ، فلن تأتي إلا بحكم معوّج حائد عن طريق الصواب في جُلّ الأحوال بل كلها ، اذا فوّضتَ اليها مقاليد الحكم ، هذا ، وليس فيه أدنى مبالغة ولا مجازفة ، لأن الميول والرغبات التي توجد في طبيعتها تعدل بها عن وجه الصواب وتُلجئها الى حكم أو رأي يتأتى به المقصود مستعجلاً وبسهولة وبأيّ طريق كان . وهذا ضعفٌ طبيعي كامن في جبلّة الهوى ونفس حقيقتها . أيّا ما كانت ، مشيئة فردٍ أو طبقةٍ أو « المشيئة العامة » التي ذكرها روسو (Roussue) وأعاد فيها وأبدأ ، لا تصلحُ بطبيعتها وجبلتها أن تكون مساعدة في وضع « الدين » الذي نحن بصدده . أما « المسائل النهائية » (Ultimate Problems) كماهية الحياةِ البشريةِ وغايتها ومآلها فلا يمكن ان تكون « الهوى » أو المشيئة الانسانيةُ عوناً بحال من الأحوال في حلّها وفكّ معضلاتها .

ولنأخذ « العقل » ثانياً . فلا جدالَ في استعداداته القيمة ، وايضاً لا تُنكر أهميتهُ ومكانته في الحياة البشرية . وكذلك لا مراء في أنه

من أعظم القوى البشرية التي تدفع الانسان الى العمل وتهديه الى ما تشاء من السُّبُل . لكن العقدة التي تُواجهنا لأول وهلة في هذا الباب: أيُّ عقل هو الذي تُناط به مهمة وضع « الدين » وايجاده ؟ أيكون هو عقلَ زيد أو عمرو ؟ أو عقولَ جميع البشر أم عقل طائفة مخصوصة منهم ؟ أيكون هو عقلَ أبناء عصرنا ، أو عقل الذين مضوا من قبلنا ، أم عقل الذين سيأتون بعدنا ؟ وَهبْ أننا صرفنا النظر عن هذه العقدة ، فهل يمكن أن يقول أحد ويَدّعي أن العقل جدير بأن تُناط به هذه المهمة ويعتمد عليه في وضع « الدين » المطلوب ؟ هل يستطيع أحد أن يقول بذلك بعد ما يعرف العقل الانساني بحقيقته وحدوده ؟ وكيف يمكن ذلك ، فان أحكام العقل كلها مبنيةٌ على المواد التي تُعدّها له الحواسُّ وتُزَوِّدُه بها ، فان زَوَّدَته بالمواد المخطئة ، جاءت أحكامُه مخطئةً ، وإن زَوَّدَته بالمواد الناقصة ، جاءت أحكامُه ناقصةً . وأما الأمور التي لا تزوده فيها الحواس بشيء ، فان العقل ان كان يعرف نفسه فلا يجترىء على القطع بشيء في تلك الأمور . وان كان ممن اغتر بنفسه والتبست عليه طبيعة نفسه ، كان مَثَلُه في الحكم كمثل الذي ضلّ الطريق فجعل يخبط خَبْطَ عشواء . فقل لي بربك أنّ هذا العقل « المسكين » الذي تراه مشدوداً بحبال من هذه الحدود الضيقة ، كيف يُعَدُّ أهلاً لأن يُفوّض اليه هذا الأمر الخطير ويُكلّف أن يَضَعَ ذلك « الدين » المأمول للنوع البشري ؟ فان « المسائل النهائية » التي يتوقف عليها أمر وضع ذلك « الدين » ، لا تأتي فيها الحواس

بشيء من المواد أصلاً . أفترى أن يُقضى في تلك المسائل بمجرد الأوهام والأخيلة والأقيسة التي لا طائل تحتها ؟ وكذلك القيم الخلقية المستقلة التي لابد من تعيينها وتحديدهـــا في مهمة وضـع ذلك « الدين » ، لا تُزَوِّدُ لها الحواس الا بمواد ناقصة جداً ، فهل يمكن أن يُرجى من العقل أن يعين ويحدد القيم الصحيحة الكاملة على أساس المواد الناقصة ؟ وكذلك العناصر الأخرى التي يتركب منها « الدين » ويتــألف ، حَسب ما تقدم لنا ذكرُها ، لا تأتي الحواس لأي عنصر من تلك العناصر أو جزء من تلك الأجزاء بمواد صحيحة كاملة يمكن العقلَ أن يبني على أساسها نظاماً جامعاً كاملًا . وزدْ على ذلك أن عنصر الهوى لازمٌ إياه ملتصق به دائماً ، وهو الذي يحول بينه وبين الحكم العقلي المحض ولا يَدَعُه الا عادلاً عن طبعه المستقيم ومائلًا عن وجه الحق والصواب قليلًا أو كثيراً . وَهَبْ ان العقل الانساني لا يُخطىءُ في ترتيب المواد التي تُعدُّها له الحواس وفي الاستدلال بهــا ، ولكنه لا يلزم منه أنه قد أصبح أن يستحق أن يُلقى على كاهله مثلُ هــذا العبء الثقيل ، لأنه لا يستطيعه ولا يقدر عليه البتة لما في نفس طبعه من الضعف والوهن . وإن ألقيتَ هذا العبء الفادح على عـاتقه فقد ظلمتَه وظلمت نفسك معاً .

أما الوسيلة الثالثة ، وهي العلم الذي يحصل بالمشاهدة والتجارب ، فأنا أولُ من يقدر هذا العلم حق قـــدره ولستُ ممن يزدرونه أو لا يُعطونه قسطه من الأهمية والخطورة . ولكن مع ذلك أرى أن

صرفَ النظر عن الحدودالضيقة التي أحاطت به من كل جانب وتوسيع أفقه ودائرةِ نفوذه أكثر مما تستحقه ، مما لا يَمُتُّ الى العلم بسببٍ ولا يستند الى أساس . والذي له معرفةٌ بحقيقة العلم الانساني ، لا يَسَعُه الا الاعترافُ بأنه لا سبيل لهذا العلم إلى استكناه سر « المسائل النهائية » واستجلاء حقيقتها ، لأن الانسان لا يملك شيئاً من الوسائل التي تُرشده وتوصله اليها . فانه لا يقدر أن يُشاهد بأم عينه حقيقة تلك « المسائل النهائية » وكنهها ، وكذلك لا يمكنه ان يرى فيها رأياً أو يقطع فيها بشيء يصح عليه إطلاقُ كلمةَ « العلم » ، مُستَدِلاً بالاشياء التي تأتي تحت المشاهدة وتدخل في باب التجربة . فثبت من كل ذلك ان المسائل التي لا بد من معرفة حقيقتها وإدراك سرها لأول الأمر في مهمة وضع ذلك « الدين » ، خارجةٌ عن حدود العلم ودائرة نفوذه تماماً . أما أنه هل يمكن أن يُفوَّض اليه أمرُ تحديد القيم الخلقية وأصول المدنية وتعيين الحدود التي تحفظ الانسان من تَنَكُّب المحجة العادلة ؟ فأولُ سؤال يواجهه الباحث في هذا الشان أنه : « أيُّ علمٍ هذا الذي يقوم باداء هذه المهمة العظمى ؟ أهو علم رجل بعينه أو علم طائفة مخصوصة أم علم عصر محدود ؟ » واذا صرفنا النظر عن هذا السؤال الناشيء ههنا بطبيعة الحال فعلينا ان ننظر في الشروط التي لا مندوحة عنها في تأدية هذه المهمه بطريق علمي . فالشرط الأول لهذه المهمة أن يحصل العلم بجميع القوانين الفطرية التي يعيش تحتها الانسان ويتنفّس في هذه الكرة الأرضية . والشرط الثاني من شروطها ان

يتكمل العلوم التي لها صلة بحياة البشر نفسها . وثالثهـا ان تُجمع معلومات هذين النوعين من العلوم ، أي علوم الكون والعلوم التي تتعلق بحياة الانسان ، يقوم بجمعها ذهن عبقريٌ ويُرتـبّها ترتيباً صحيحاً ويستدل بها استدلالاً سليماً مستقيماً حتى يمكنه ان يُعيّن القيم الخلقية وأصول المدنية ويحدد الحدود التي تحفظ الانسان من العدول عن الصراط السوي . ومن البين الواضح أن هـذه الشروط لم تتحقق بعدُ ولا يُرجى ان تَتَحَقَقَ في المستقبل حتى ولا بعد خمسة آلاف من السنين . وهبْ أنها تحققت باجمعها قبل انقضـاء العالم أو الانسانية بيوم أو ساعات ، فأيّ مغنم تكتسبُ الانسانية بذلك ؟

ولنختم هذا البحث بالنظر في رابعة الوسائل الأربع لوضع الدين ، وهي التي يُعبـَّرُ عنها ، بـسِـجِلّ الانسانية ، أو « **السجل التاريخي للتجارب الانسانية الماضية** » . وما أنا بالذي يجحد حسناته ومنافعه وينكر ما له من الخطورة والاهمية ، ولكن الذي أراه وأجزم به — وستوافقوني على ذلك إذا تدبرّتم المسالة وأمعنتم فيها — أن هذا أيضاً لا يكفي للقيام بمهمة وضع « الدين » الجليلة العظيمة الشأن . ولستُ بسائل الان : « هل انتقل هذا «السجلُ» من الماضي الى الحـال ، محافظاً على صحته ومحتفظاً بدقيقه وجليله ؟ » وكذلك لستُ بمستفسر في هذا المقام أنه : أيُّ ذهن يكون هذا الذي يمثل الانسانية في داء مهمة وضع « الدين » ، مستعيناً بذلك السجل التاريخي ؟ أيكون

ذلك ذهن هيجل (Hegel) أو ذهن ماركس (Karl Marx) أم ذهن أرنست هيكل (Ernst Haeckel) أو ذهناً آخر من الأذهان ؟ » والذي أسألكم الان فقط ان السجل التاريخي الذي يُعِدُّ المواد اللازمة لوضع ذلك « الدين » المنشود : هل تحدّدونه بشيء من حدود اليوم أو الشهر أو السنة في الماضي أو الحال أو المستقبل أم لا ؟ فاذا حصرتم ذلك السجل في شيء من دوائر تلك الحدود ، وما لكم من مناص عن ذلك ، فمعناه ان الذين قُدّر لهم ان يعيشوا ويزدهروا بعد ذلك اليوم المحدود يكونون سعداء مغتبطين ، واما الذين خلوا قبل ذلك اليوم ، فبئس المصير مصيرهم ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

هذه اللمحات الموجزة التي ألمعتُ إليها في ما تقدم ، أرجو أن لا أكون أخطأت فيها في البحث النظري أو الاستدلال بالقضايا الثابتة فاذا كان هذا كله الذي بينته الان عما يملكه الانسان من الوسائل لوضع الدين صحيحاً فليس هنالك شيء يعوقنا عن الرجوع الى قول الحق والايمان بأن الانسان ، وان أمكنه أن يضع لنفسه ديناً محلياً أو عصرياً مزيجاً من العناصر الواهية ، خليطاً من الغث والسمين ، فانه ليس في وُسعه ان يضع ذلك « الدين » المطلوب بحال من الأحوال ، وذلك متعذر البتة ، وقد تضافرت الحجج على عجزه عن ذلك ، فانه لم يقدر على ذلك في عصر من العصور الماضية ولن يقدر على ذلك في المستقبل أيضاً ، لكونه من باب المحال الذي يتعذر تحققه . هذا ، فان لم يكن الله موجوداً لهداية الخلق ، كما يزعم الذين كفروا بالله وبآياته

فلا سبيل للانسان في هذه المعمورة الا أن ينتحر ويقتل نفسه بيده . فالسالك الذي ليس له دليلٌ ولا يملك بنفسه من الوسائل ما يهتدي به في ظلمات الطريق ، ما كتب له الا الحزن واليـــأس ، لا غير ، وخيرٌ لمثل هذا السالك ان يصطدم بصخرة في قـارعة الطريق حتى يتخلص من ذلك اليأس المؤلم المُوجع . وان كان الله موجوداً ، ولكنه ليس بالذي يهدي الخلق ويُخرجهم من الظلمات الى النور ، كما يقول الذين غلـَبَتْ عليهم العلومُ الفلسفيةُ والطبيعية فأضلتهم عن ادراك الحقيقة الربانية ، فذلك أدهى وأمر . وما ظنك بالله الذي خلق الخلق ودبّره فأحسن تدبيره وأخرج من بطون الأرض والأودية والجبال كل ما يحتاج اليه هذا الكون ومَنْ فيه من أدوات العيش والزينة وأسباب البقاء والحياة وأنشـا لهم كل ما يمكن أن يتصور العقل البشري . مـا ظنك بالله الذي فعل هذا كلـه ولكنه لم يُدبّر الأمر الذي يحـتاج اليه الانسان أكثر من كل شيء ، والذي بدونه تكاد حياة النوع البشري كله تعود سُدىً وعبثاً . ولعمرك ان العيشةَ في الدنيا التي خلقها مثل هذا الاله لبليةٌ أشدُّ وأنكى من أية بلية يمكن تَصوُّرُهـا للجنس البشري فما بكاؤك هذا على الفقراء والمساكين والمرضى والجرحى والمنكوبين والجماهير المضطهدة وبؤسهم وشقائهم ؟ وانمـــا عليك ان تبكي لشقاء النوع البشري بأسره الذي تُرك وشأنه في حال من العجز

والافتقار بحيث يخيب في تجاربه مرةً بعد أخرى ، يتعثر فيسقط ثم ينهض ويمشي ولا يمشي الا ليعثر ، وفي كل عثرة له تهلك بلادٌ باسرها وتفنى شعوبٌ عن بكرة أبيها . والمسكين لا يعرف شيئاً عما خُلق لأجله ولا علم له بماذا يسعى وراءه ولا يدري كيف السبيل اليه ؟ والله الذي أبرزه الى عالم الوجود في هذه الكرة الأرضية ينظر الى كل ذلك نظرةَ المتفرّج ، ولا يهمه هداية البشر أو ضلالتهم في شيء ، فانه لم يكن له الا الخلقُ وقد قضى الوطر من ذلك، كَبُرَتْ كلمةً تخرج من أفواههم ، إن يقولون الا كذباً .

وبالعكس من كل ذلك جاء القرآن بصورة أخرى للكون والمجتمع البشري وعلاقتها بربِّ العالمين وخالق الكون ومُدبّره صورة صادقة سليمة تحلّ العقد برمتها وتفكّ المعضلات بجذافيرها . ألا ، وهي أن الله ليس بخالق فحسبُ ، وإنما هو الهادي الذي أنعم على كلِ مَنْ في هذا الكون من الموجودات « بالهداية » التي تقتضيها بفطرتها ، والتي لم يكن لها بُدٌ منها كما قال عَزَّ من قائل : (الَّذِيْ أَعْطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَه ثُمَّ هَدَى) « طه : ٥٠ » وان شئت الدليل فعليك بأية نملةٍ أو ذبابة أو عنكبوت وتأمل في حياتها ونشوئها ومعايشها ، ينكشف لك الأمر وتتجلّ لك الحقيقة . فذلك الله الذي يهدي هذه الحشرات وغيرها ، يهدي البشر أيضاً ويرشدهم الى سواء السبيل .

فالطريق الأقوم للبشر أن يتجرد عن أنانيته والاغترار بنفسه ويُسلم وجهه الله ويتّبع ذلك « الدين » او نظام الحياة الجامع الكامل الذي أرسله الله لهداية البشر بواسطة أنبيائه ورُسُله الذين اصطفاهم لابلاغ رسالته .

هذه دعوى القرآن . وقد عرفتَ آنفاً النتيجة التي ظهرت لنا بعد ما اختبرنا وسائل الانسان وقُواه العديدة المتشعبة ، فنحن الآن بين أمرين ، ولا ثالثَ لهما : إما أن نتلقى هذه الدعوى بالقبول واما أن نلقي بأنفسنا في مهوى من ظلمات اليأس التي لايعرف أولها من آخرها ولا يتراءى فيها ، ولا وميض من نور الأمل . ولا يحسبنّ أحد أننا أمام وسيلتين اثنتين للحصول على ذلك « الدين » وأننا مُخيرون بينهما ان نختار أيّتهما شئنا . لا ، والله ، ليس الأمر بذاك وانما الحقيقة الواقعية ان الوسيلة التي يُمكن ان ننال بها « الدين » المطلوب تنحصر في واحدة ولا تتعداها أبداً . والذي مُخيرنا فيه ، هو إما أن نستعين بهذه الوسيلة الوحيدة ، فنظفر بسعادةَ في الدنيا والآخرة ، وإما أن نكفر بنعمة الله هذه ونؤثر الضلال على الهداية فنظل نعمّهُ في دياجير الشكوك ونتسكّع في ظلمات الأوهام .

إذا عرفت هذا ، فليكن منك على علم ان الحجج التي أتينا بها في ما تقدم لاثبات كلامنا ، توصلنا الى نتيجة واحدة وهي أنه لامندوحة

للانسان عن قبول دعوى القرآن هذه ، وأنه لا سبيل لسعادته الا اياه ، كأني بتلك الحجج والبراهين تُلجئنا الى قبول الدعوى طائعين أو مُكرَهين . لكنك اذا تَدبّرت القرآن وعكفتَ على مثـــالثه ومثانيه متأملًا مستبصراً ، عرفتَ أن الأمر ليس كذلك ، فانالآيات البينات والبراهين القاطعة التي جاء بها القرآن مستدلاً بها على دعواه أسمى من ذلك شرفاً وأجلّ قدراً ، فانها تَحثُّنا وتُرَغّبنا في انندين بدين الله ، وقُلوبُنا مطمئنة بالإيمان ، مقتنعة بصدق كلمتها ، بدلاً من ان نقبل دعوته مُكرهين او مضطرين ، لا ينشرح لها الخــاطر ولا تطيب بها النفسُ . وأقوى تلك الحجج والبينات المبثوثة في سُور الكتاب العزيز وآيه وأشفاها للصدور وأقربها للعقل أربعٌ ، وهي التي صُرّف فيها القول وأعيد ذكرها مراراً بأساليب مبتكرة . وهاهي :

(١) الاسلام هو المنهاج الصحيح الوحيد للحياة البشرية ، لأنه يُوافق الحقيقة على ما هي عليه في نفس الأمر وكلُّ طريق دونه ليس من الحيقة في شيء كما ورد في التنزيل :

أفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ، وَلَهُ أسْلَمَ مَنْ فِي السَّمواتِ والأرضِ طَوْعاً وكَرْهاً وإليهِ يُرْجَعُونَ . « آل عمران : ٨٣»

(٢) هذا هو المنهاج الوحيد الصحيح للانسان ، لانه هو الحق،

ولا يصحّ له طريقٌ آخر حقاً وعدلاً ، كما قال عزّ من قائل :

إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذِي خَلَقَ السَّموات والأَرْضَ في سِتَّةِ أيّامٍ ثُمَّ استَوى على العَرْشِ يُغشِي اللّيلَ النّهارَ يَطلُبُهُ حَثيثاً والشَمسَ والقَمرَ والنُّجُومَ مُسخّراتٍ بِأمْرِهِ . ألا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ . تَبارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمينَ . « الاعراف : ٥٤ »

(٣) هذا الطريق هو الصحيح للانسان ، لان حقائق الاشياء على وجهها وعلى ماهي عليه ، لا يعلمها الا الله ، وهو الذي لا يأتي هدايته الخطأ من بين يديها ومن خلفها . قال ، تباركت أسماؤه :

(إنَّ اللهَ لا يَخفَى عَلَيْهِ شَيءٌ في الأَرْضِ وَلا في السَّماءِ) . « آل عمران : ٥ »

(يَعلَمُ مَا بَينَ أيديهِمْ وَمَا خَلفَهُمْ وَلا يُحيطُونَ بِشَيءٍ مِنْ عِلمِهِ إلاّ بِمَا شَاءَ) . « البقرة : ٢٥٥ » .

(قُلْ إنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدى) . « البقرة : ١٢٠ » .

(٤) هذا هو الصراط المستقيم الوحيد للانسان ، لانه لا يمكن ان يقوم العدل إلا به ، وأي طريق يسلكه من دونه لابد أن يسير به الى الظلم ويحيد به عن طريق العدل ، كما قال تعالى شأنه :

(وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُوْدَ اللهِ فَاولئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ) .
« البقرة : ٢٢٩ » .

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأولئِكَ هُمُ الظَّالِموْنَ) .
« المائدة : ٤٥ » .

هذه هي الحجج والبينات التي تُلزِمُ كلّ من أوتي شيئاً من سلامة الطبع ونزاهة الرأي أن يُسلم وجهه لله ويستهديه كلما عميت عليه السبيل ويرجع اليه كلما التبست عليه وجوه المسالك .

وربما يسألني القارىء في هذا المقام : فهل نُؤمن بكل من يأتينا بدين ويَدّعي أنه من عند الله ؟ والا فما الذي يُميّز به الخبيثُ من الطيب والزائف من الصحيح ؟ ومن أين لنا بالمقياس الذي يفرق بين الدين البشري وبين الدين الالهي المنزل عند الله تعالى شانه ؟ وهذه شبهة ربما تتخالج في صدر كل باحث في هذا الموضع ، وقد خالجتني بنفسي في أثناء البحث والتحقيق . فقبل أن أتقدم في الكلام ، أرى عليّ لازما أن أدفع هذه الشبهة بما فيه مُقنع وكفاية . الجواب عنها وإن كان يقتضي كلاما في غاية من الدقة والتحقيق ، محيطاً بجميع نواحي الموضوع ، ولكني أقتصر ههنا على بيان مقاييس أربعة مهمة تفرق بين الفكر الانساني والفكر الالهي وتُوضح مدى الفرق بينهما ، وذلك أيضاً

بلمحات موجزة تروي الغليل وتشفي العليل إن شاء الله تعالى. ودونك بيانها في ما يلي :

(١) فأول خصائص التفكير البشري وأهمها وأقدمها ذكراً أنه لا يخلو من الخطأ العلمي وأنه منحصر في دائرة ضيقة . أما التفكير الالهي فتتجلى فيه أبهة العلم الصحيح الواقع الذي لا يتقيد بحدود من صنع البشر . فالذي من عند الله يستحيل ان تجد فيه شيئاً يناقض حقيقة علمية ثبتت وتحققت في أي عصر من العصور او تعثر فيه على شيء يقال عنه ويثبت ان مصنفه قد غابت عنه ناحية معلومة من الحقيقة او خفي عليه جانب معين منها . ولكنه مما ينبغي للباحث في هذه المسألة ان يكون على حذر خلال البحث والتنقيب ، حتى لا يغفل عن الفرق العظيم الذي يوجد بين العلم والقياس العلمي والنظرية العلمية. فان الاقيسة والنظريات العلمية السائدة في عصر من العصور المسيطرة على العقول والافكار ، ربما تعد خطأ من صميم العلم وحقائقه الثابتة ، والحال انه يستوي فيها جانبا الصواب والخطأ ولا ترجح كفة على أخرى أصلاً . وقلما يستطيع أحد ان يدلنا على أقيسة ونظريات ثبتت على تقلبات الزمن وشهدت التجارب المتواصلة على مدى الايام لكونها علماً متحققاً ثابتاً لا يتطرق اليه الوهم ولا يتسرب اليه الشك .

(٢) ومن خصائص التفكير البشري التي تغض من قدره وتقلله

في عين الباحث ضيق وجهة النظر وعدم اتساع دائرتها . بالعكس من ذلك ترى التفكير الإلهي واسع المدى ، بعيد الغور محلقا في سماء أرفع وأوسع بكثير من سماء التفكير البشري . وكلما نظرت الى شيء مُتفجّر من ينبوع التفكير الإلهي أحسست كأن صاحبه ناظر الى هذا الكون والى ما وراءه من الاحقاب المتطاولة والى ما بعده من العصور الآتية ، كانه ناظر الى الحقائق برمتها نظرة واحدة لا يخفى عليه شيء في بطون الارض ولا في جو السماء ولا يغرب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض . فايُّ وزن يقام لافكار فطاحل الفلاسفة والمفكرين في جنب هذا التفكير الإلهي السرمدي؟ وما مَثلُ أولئك الفلاسفة والمفكرين في هذا الباب الا كمثل صبيان يبنون على الرمال بيوتا ويتلهون بها .

(٣) هذان اثنان . واما الثالث فهو ان التفكير البشري لا يخلو من ان يمتزج فيه الحكمة والتَدبّرُ بالرغبات والعواطف وتتخلى الحكمة عن بعض مكانها حتى تتمكن منه العواطف والرغبات فيصطبغ التفكير البشري بالصبغتين ، هذا بخلاف ما نشاهده في التفكير الإلهي فانه تتجلى فيه الحكمة العادلة والتدبر النزيه باجلى مظاهرهما بحيث لا يمكنك أن تدل في أحكامه على شيء من الانحياز الى العاطفة والتأثر بالميول والرغبات .

(٤) وأما الرابع فهو الضعف الكامن في طبيعة التفكير البشري بأن كل نظام يبدعة ويخترعه من عند نفسه ، لا بد ان يجد الانحياز الى جانب ، والتفريق بين البشر لاسبـــاب لا تمت الى العقل بصلة ، وكذلك تفضيل بعض على بعض والاستئثار بأحد دون آخر من غير مستند عقلي ، لابد ان يجد كل ذلك سبيله اليه ويتدخل في تكوينه ونضوجه . وذلك أن لكل رجل صلات وعلاقات شخصية بأفراد من البشر ربما لا تكون له بافراد آخرين من دونهم . ومن البيّن الجلي الذي ليس فيه أدنى خفاء ان نظام الحياة المستخرج من التفكير الإلهي يكون خالصاً متطهراً من مثل هاتيك العناصر البتة .

هذه هي المقاييس الأربعة . فانظروا في كل نظام للحياة يدعي بكونه « الدين » المنزّل من عند الله وامتحنوه وزنوه بها ، فان كان خالياً من خصائص التفكير البشري هذه كلها ، ووجدته متصفاً بجميع خصائص الجامعية والعالمية والسرمدية التي تقدم ذكرها سابقاً بصدد كلامنا في إثبات حاجة البشر الى ذلك « الدين » ، فلا يعوقنّك شيءٌ عن الايمان به والاستسلام له .

- ٣ -

الآن ، وقد فرغت من البحث في المسألتين الأولين الأساسيتين من موضوع هذا المقال ، أريد ان تكون خاتمته بالكلام في المسألة

الثالثة من تلك المسائل المهمة التي جعلتها مناط البحث اليوم . وهي انه اذا آمن المرء بهذه الدعوى و « بالدين » الذى استيقنت نفسه أنه الدين المنزل من عند الله ، فماهي الواجبات والمقتضيات التي يقتضيها ويستدعيها الايمان بها والاستسلام لها ؟

فالاسلام ، كما قلت في بداية هذا البحث ،هو الخضوع والاستسلام والاذعان لأمر الله . والظاهر أنه لايمكن الجمع بين هذا الخضوع والإستسلام والإذعان وبين الانانية والاستبداد بالرأي والحرية في الفكر والعمل فانهما على طرفي نقيض . وذلك ان « الدين » الذي آمنت به ، لابد ان تفوض اليه شخصيتك كاملة ، فلا يمكنك ان تستثني جزءاً من أجزاء فكرك وعملك من الدخول في حوزة الطاعة . ومن مقتضيات الايمان اللازمة ان تدخل في السلم كافة ، حتى يكون ذلك « الدين » ديناً لعقلك وقلبك، ولعينك وأذنك ؛ وليدك ورجلك ، ولجسدك وبطنك، ولقلمك ولسانك ولايامك ولياليك ، ولمساعيك وأعمالك ، وبالجملة أن لايكون جزء من شخصيتك أو جانب من جدّك وكفاحك خارجاً عن حوزة ذلك الدين الذي آمنت به . ومتى استثنيت شيئاً من طاعة ذلك « الدين » وأخرجته من حوزة نفوذه وسلطته فاعلم أنه خالط دعوى ايمانك الكذب بقدر ما استثنيت ذلك الشيء من طاعته ودخلها الغش من الجهة التي أخرجت منها بعض ما أحببت من حوزة

نفوذه . ومن واجب كل فرد من أفراد البشر يحب الصدق والأمانة أن يبذل الجهد المستطاع في تطهير حياته من الكذب والغش .

وكذلك بينت في مفتتح هذا البحث ان الحياة البشرية بمجموعٌ كلي لا يمكن تجزئته الى فروع وشعب . فلا مندوحة عن ان يكون للحياة البشرية جمعاء دينٌ واحدٌ . اما اتباع دينين او ثلاثة في وقت واحد فما هو الا برهان على ضعف العقيدة واضطراب الحكم العقلي وارتباك العزيمة . فانه اذا آمنت بدين من الاديان واطمأنت نفسك بأنه « الدين » المنزل من السماء فلم يبق لك بد من ان يكون ذلك « الدين » ديناً لحياتك بأسرها ، محيطاً بجميع فروعها وشعبها . وان كان ذلك « الدين » ديناً لحياتك الشخصية ، فليت شعري ما الذي يمنعه من ان يكون ديناً لبيتك ولتربية أطفالك ومدرستك ومناهجها التعليمية ولا ندري ماذا يعوقه من ان يكون ايضاً ديناً لتجارتك ومكاسب رزقك وحياتك الاجتماعية وديناً لخطتك القومية وحضارتك وسياستك ولأدبك وكل ما يتصل بالحياة البشرية من علم وأدب وفن . فكما أنه من المستحيل ان يكون اللؤلؤ لؤلؤاً اذا كانت اللآلىء منتثرة غير منتظمة ، وحينما تنخرط في سلك او تنتظم في عقد فاذا بها تتحول بمجموعها قطعات من الحذف مثلاً ، كذلك مما يأباه الذوق وينكره العقل السليم ان نتبع ديناً في حياتنا الشخصية ، ثم اذا قمنا بتنظيم شؤون

حياتنا المختلفة يبقى بعض فروع تلك الحياة المنظمة مستثنياً من دائرة نفوذ ذلك « الدين » خارجاً عن حدوده وعلى قوانينه .

وفوق كل ذلك من مقتضيات الايمان المهمة العظيمة أنه اذا آمنت بدين من الاديان واستيقنت نفسك انه هو « الدين » المنزل من عند الله ، اصبح من واجبك ان لا تألو جهداً في نشر مكارم ذلك الدين وبث محاسنه وفضائله وان تبذل الجهد المستطاع في دعوة البشر كافة الى الايمان والدخول في دائرته حتى يكون ذلك « الدين » دين العالم بأسره ، بل ينبغي ان تكون هذه الغاية غاية أمانيك في الحياة وهمك الوحيد في العالم .

فكما ان الحق بطبيعته لا يرضى الا ان يعيش غالباً قاهراً ، كذلك من صميم طبيعة عاطفة حب الحق ، ان لا يهدأ لها مضجع ولا يقر لها قرار ، حينما يتبين لها الحق ، الا بمتابعة الجهود ومواصلة المساعي لاعلاء كلمة الحق ورفع رايتها وغلبتها على كل باطل يقوم في وجهها . ولعمر الحق ان الذي يشاهد بعيني رأسه ان الباطل قد تغشى العالم بأسره ، وان ظلماته لا تزال تهوي بالبشرية الى هوة سحيقة من الدمار والخراب ، ان الذي ينظر كل ذلك صباح مساء ولا يشعر بألم في نفسه ولا يحس بقشعريرة في فؤاده ولا يتاذى لهذا المنظر المؤلم الذي أحاط

العالم بسرادقه فاعلم ان جذوة « حب الحق » قد خمدت في نفسه او كادت ، وان لم يبادر الى استقداح زنادها بالعمل والجد والكفاح فلا يبعد ان ينقلب هذا الخمود الطارىء الى خمود أبدي . وفي ذلك هلاكه وهلاك من بيده زمام أمرهم . أعاذنا الله واياكم من ذلك .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

الفهرس

تطلب جميع منشوراتنا من :

الشركة المتحدة للتوزيع

بيروت - شارع سورية - بناية صمدي وصالحة

هاتف ٢١٩٠٣٩١ - ٢٩٥٥٠١ - ص.ب ٧٤٦٠ - برقياً : بيوشران